

# المقرى مؤرخ الأندلس

## حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

يقسم المقرى كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين ، يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها ، والثاني للتعريف بابن الخطيب . ويشتمل كل قسم على ثمانية أبواب ، فيشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها وفتحها على يد موسى وطارق ، وتاريخها في عهد الولاة وبنى أمية وملوك الطوائف ، ووصف قرطبة ومماهددها وضواحيها ومنزهاتها ، ثم التعريف بالراحمين من الأندلس إلى الشرق ، والوافدين من الشرق إلى الأندلس . واستعراض آداب الأندلس ومشورها ومنظومها ، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس وإسبانيا النصرانية وسقوطها الأخير في يد النصارى . ويشتمل القسم الثاني على نشأة ابن الخطيب ، وتدرجه في طريق المجد وما تلى من الأحداث والمحن حتى وفاته ، وذكر أساتذته وأشياخه ، وما وجه إليه من الرسائل اللوكية ومن أكارب عصره ، ومقتطفات كبيرة من كتبه ورسائله ونثره ونظمه ، وذكر مؤلفاته وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، ثم ذكر أولاده ووصيته .

ويشتمل الكتاب كله أربعة مجلدات ضخمة ، كل قسم مجلدين ؛ فهو كما قدمنا موسوعة صحيحة سواء من ناحية حجمه أو محتوياته ؛ ذلك أن المقرى يحشد في كل باب من هذه الأبواب العامة كثيراً من المعلومات والشذور والوثائق والرسائل والمختارات ؛ ويكاد كل منها يضارع كتاباً بأسره . ويجرى المقرى على قاعدة الاستطراد فينتقل بقرائه من موقف إلى موقف ، ومن شذرة أو رسالة أو قصيدة إلى أخرى حسبما تسوقه شجون الكلام والرواية . وقد ترد خلال حديثه أهم المعلومات والوثائق حيث لا ينتظر ورودها . وفي كثير من الأحيان ينقل المقرى إليها رسالة بأسرها أو كتاباً بأسره ؛ ولا يعنى المقرى بالتنظيم

والتناسق ، وإنما يعرض مادة كتابه مبثثة حسب التقسيم البسيط الشامل الذى ذكرناه

ذلك أن المقرى لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقى ، بل كان أدبياً فقط ؛ وهو لا يزعم أنه مؤرخ أو محقق أو ناقد ، وإنما يقول لنا إنه ناقل فقط يورد من المعلومات والشذور ما اتفق ولا يعنى بتحصيلها أو تحقيقها (١) . ولكننا مع ذلك نشعر أن للمقرى فى كتابه شخصية قوية ، ونشعر بالأخص بأن حرارة خاصة تنبث من هذه الصحف الأندلسية ؛ ذلك أن المقرى يكتب عن الأندلس بروح يضطرم إعجاباً وأسى ؛ ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ما تزال فى عصره حية مضطربة فى الغرب ، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائى فى يد إسبانيا النصرانية ؛ بل لقد وقع فى عصر المقرى بالذات حادث أذكرى هذه الذكريات الشجية ، هو تقي « الموريسكيين » أو العرب المنتصرين من إسبانيا (فى سنة ١٦٠٩م - ١٠١٧هـ) والعرب المنتصرون هم بقية الشعب الأندلسى المجيد أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس ؛ وقد وفدت منهم عند التقي عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده ، وعاد معظمهم إلى الإسلام . وشهد المقرى هذه الخاتمة المؤسفة ، وهو يومئذ بفاس ، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المنتصرين ، وتركت هذه الذكريات والمشهد المؤلة فى نفسه أعمق الآثار (٢) ، وأذكت فى نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وما ضيها المجيد وأبابها الزاهرة

وقد وضع المقرى كتابه عن الأندلس فى القاهرة كما قدمنا ، ولكنه كان قد جمع معظم موادها فى المغرب . ويقول لنا المقرى إنه عنى منذ شبابه بالتنقيب فى تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها ، وإنه استخرج من مراجعته أغزر المواد وأنفسها ، ولكنه تركها بالمغرب ، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل منها ، ومنها أوراق سودها ، وأشياء علفت بذكريته . ويقول لنا أيضاً : « إنه لو حضره ما خلفه مما جمع فى ذلك الترض وألف ، لقرت به عيون ، وسرت ألباب ... » (٣) ؛ وإذا كان المقرى

(١) راجع إشارة المقرى إلى ذلك فى نفع الطيب ج ١ ص ١٣٦

(٢) راجع حديث المقرى عن هذا الحادث ج ٢ ص ٦١٧

(٣) نفع الطيب — ١ ص ٥٧

بذلك في الاسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربي معظمها من تراث الأندلس ؛ ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس ، فقد شبت النار في الاسكوريال سنة ١٦٧١ ، والتهمت معظم الكتب العربية ، ولم يبق منها سوى ألفين ؛ وبقيت ضمن هذه المجموعات عدة من كتب مولاي زيدان لا تزال إلى يومنا في الاسكوريال

وهذا فيما نعتقد هو السر في اختفاء الآثار الأندلسية التي كانت تحفل بها قواعد المغرب ومكاتبه في عصر القرى ؛ وقد جمع القرى مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتي ١٠١٣ - ١٠١٧ هـ (١٦٠٣ - ١٦١٦ م) ، وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدبائه جيله أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به . وما يدل على أن القرى انتفع بنوع خاص بالمراجعة في مكتبة مولاي زيدان التي فقدت ، أنه ينقل عن نسخة وحيدة من مستند ابن مرزوق المغربي كانته ضمن هذه المجموعة ولا تزال في الاسكوريال<sup>(١)</sup> ، وكذلك يستق معظم روايته عن سقوط غرناطة وعن العرب المنتصرين من كتاب « أخبار مصر في انقضاء دولة بني نصر » ومنه نسخة وحيدة أيضاً في الاسكوريال<sup>(٢)</sup>

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض المصادر المدينة التي نقل عنها القرى ، ماضع منها ، وما يزال قائماً ؛ ويكفي أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التي ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها ؛ ومن ذلك تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس ، وتواريخ الحميدى ، والحجاري ، وابن بشكوال والرازي وغيرهم ، وكتب عديدة لابن الخطيب ، وقد بقيت من تاريخ ابن حيان قطعة صغيرة نشرت أخيراً ؛ ووجدت منذ أعوام بالمغرب نسخة كاملة من كتاب الذخيرة لابن بسام ، وفيها عدا ذلك لم يظفر البحث الحديث بشيء من تلك المصادر الجليلة التي ينقل إلينا القرى عنها بسخاء يزيد اليوم في فضله وفي أهمية كتابه

\*\*\*

(١) لين بروفنسال في دابة للعارف الإسلامية ( مقال القرى )

(٢) نشر هذا الكتاب - وهو مؤلف مجهول - في أواخر القرن

الماضي بناية أحد المنتصرين

بمعنى بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه ، فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً ، ذلك لأن هذا القليل الذي ضمنه « نفع الطيب » هو في ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة التي تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها وقد قلنا إن القرى ناقل ومصنف ؛ ولكن له في هذا النقل والتصنيف فضلاً لا يقدر ؛ فقد نقل إلينا عشرات الشذور والوثائق من مصادر أندلسية جليلة لا وجود لها اليوم ، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم ؛ ولولا عناية القرى بنقلها وتصنيفها لجرمنا إلى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة . ولقد كان المغرب الأقصى حتى عصر القرى أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبي ؛ وكانت مكاتب المغرب ، ولاسيما مكتبة الأشراف السمديين ، عامرة إلى ذلك المهدي بكثير من الآثار الأندلسية النادرة ؛ وكان لمولاي زيدان سلطان فاس لعهد القرى شرف خاص بجمع الكتب النادرة ؛ وقد انتفع القرى بهذا التراث الحافل ، واغترف منه وقيد ما شاء ؛ ولكن الظاهر أيضاً أن هذا التراث قد بدد معظمه بدمدئ بقليل ؛ ذلك أنه قد حدث في أواخر عهد مولاي زيدان حادث يخيل إلينا أنه ذو علاقة مباشرة بضياع الآثار الأندلسية ؛ وذلك أن السفن الأسبانية أسرت مركباً منريية مشحونة بالآلاف من الكتب والتحف المملوكة لمولاي زيدان ، وحملت شحنها إلى اسبانيا ؛ ويشير السلاوي في تاريخه إلى ذلك الحادث تقيلاً عن الرواية الأسبانية ، فيقول : « وقال منويل إن قرابين الأصبنيول غنمت في بعض الأيام مركباً للسلطان زيدان فيه آثار نفيسة من جلتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك »<sup>(١)</sup> وتقول الرواية الأسبانية إن وقوع هذا الحادث كان في عهد فيليب الثالث ملك اسبانيا (١٥٩٨ - ١٦٢١ م) ؛ والظاهر أنه وقع نحو سنة ١٥٣٠ هـ (١٦٢٠ م) حينما اشتد اضطراب الملائق بين اسبانيا والملكة الشريفة ؛ وعلى أي حال فقد حملت كتب مولاي زيدان ، وهي بلا ريب أنفس مجموعة من نوعها ، إلى اسبانيا ، وأودعت في دير الاسكوريال إلى جانب بقية التراث الأندلسي التي كانت مودعة فيه منذ سقوط غرناطة ، فاجتمع

(١) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٢٨

الخبين في أسماء الهادي الأمين ، ، وغيرها (١) وقد كتب المقرئ معظم كتبه في القاهرة ؛ والمرجح أنها كتبت جميعاً أو كتبت معظمها قبل نفع الطيب ، لأن المقرئ لم يعش بعد كتابته طويلاً كما رأينا ؛ وكان المقرئ يحتل في المجتمع القاهري الأدبي مكانة رفيعة ؛ وبكفي أن نذكر هنا ما وصفه به المحي الذي ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن : « حافظ المغرب . لم ير نظيره في جودة الترجمة ، وصفاء الذهن وقوة البديهة ؛ وكان غاية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ، ومعجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات » (٢) ، والواقع أن المقرئ يكتب بأسلوب قوي ، وبيان ساهر ، يشهدان له بغزارة البلاغة في عصر كان الأدب العربي يجوز فيه مرحلة انحطاط قوي

\* \* \*

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب « نفع الطيب » كاملاً في ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢) في أربعة أجزاء كبيرة ؛ وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزي قد عملت قبل ذلك لاخراج القسم الأول من كتاب نفع الطيب وهو الخاص بالأندلس بين سنتي ١٨٥٥ و ١٨٦١ تحت عنوان *Acalectes sur L'histoire et La littérature des Arabes d'Espagne* ، وسهد لهذه الطبعة المستشرق دوجا بترجمة للمقرئ ؛ وطبع نفع الطيب بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة في أربعة أجزاء أيضاً على نسق طبعة بولاق ونشر في تونس الجزء الأول من أزهار الرياض في سنة ١٩٢٢ ؛ ونشرت بعض آثار المقرئ الأدبية ، مثل كتاب « حسن الثنا في العفو عن جنى » (القاهرة) ، وظهرت في سنة ١٨٤٠ في لندن ترجمة إنكليزية ملخصة للقسم الأول من نفع الطيب بقلم المستشرق الإسباني دون جاينجوس تحت عنوان : « تاريخ الدول الإسلامية في اسبانيا *The History of the Mohamedan Dynasties in Spain* » مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة ، وترجم

المقرئ غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق مثل فستنفلد في كتابه « مؤرخو العرب » (بالألمانية) وبروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » (بالألمانية أيضاً) والأستاذ لين بروفتال في كتابه « مؤرخو الأشراف » (بالفرنسية) ، وآخرون غير هؤلاء (تم البحث - النقل ممنوع) محمد هبيرة الله هاناه

(١) راجع خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وسلافة النصر ص ٩١ . (٢) المحي في خلاصة الأثر

ويتصل بمجهود المقرئ عن الأندلس كتابه « أزهار الرياض ، في أخبار القاضي عياض » ؛ وهو سفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الكبير عياض السبتي ، واستعراض آثاره ، على نحو ما يكتب عن ابن الخطيب في نفع الطيب ؛ بيد أنه يستطرد كعادته ، ويذهب في الحديث شجوناً شتى ، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة وتاريخ الموريثيين أو العرب المنتصرين ، ولهذه الوثائق على قلتها وإيجازها أهمية خاصة ، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية الإسلامية في هذا الوطن ، وهي أقوال معاصرين للأساسة شهدوا بعض حوادثها بأعينهم أو سمعوا أخبارها في الضفة الأخرى من الأندلسيين الوافدين على المغرب ؛ منها رسالة لمجهول يظهر أنه من معاصري سقوط غرناطة يصف فيها تقص ملك قشتالة لمهودة إزاء المسلمين ، وما اتخذته النصراري من وسائل الارغام والقهر لاكرام المسلمين على التنصر ، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة ؛ ومنها قصيدة طويلة لابن العباس أحمد الذقون أحد علماء المغرب في القرن التاسع الهجري عنوانها « الموعظة الثراء بأخذ الحمراء » يرثي فيها الأندلس ؛ ومنها أيضاً وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة ، وهي رسالة كتبها أندلسي منتصر عقب سقوط غرناطة ، إلى بايزيد الثاني سلطان الترك يستغيث به ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المنتصرين ، ويصف له في شعر قوي التعبير على الرغم من ركاكته ، ما يصيب العرب المنتصرين من أهوال ديوان التحقيق ورائع مطاردته وعقوباته ؛ وهذه وغيرها من الوثائق والشفرور التي ينقلها إلينا المقرئ في أزهار الرياض قد ضاعت أصولها ، ولولا عناية المقرئ بنقلها لما ظفرنا بها

وهذان الأثران الكبيران هما أهم ما في تراث المقرئ . بيد أن للمقرئ ثبناً آخر من الكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه ؛ ومن ذلك : « إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة » ، « فتح المتعال في مدح الفعال المشرفة بغير الأنام » . « حسن الثنا في العفو عن جنى » . « كطف المهتم في أخبار المختصر » « عرف النشق في أخبار دمشق » . « روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراکش وفاس » . « الدر